

سيمائية الصورة وفهم المكتوب في العملية التربوية

The Semiotics Of The Picture And The Understanding Of The Written In The Educational Process

تاريخ الإرسال: 2018-02-03

تاريخ القبول: 2018-04-09

الدكتور: بخولة بن الدين

trezel@live.fr

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف /الجزائر

الملخص

تفوقت الصورة على كل أدوات الاتصال إذ أصبحت هي الأكثر فعالية على الإطلاق وتبقى فعاليتها مهما تغير الزمان والمكان، فلا يمكن التعرف على المعنى إلا من خلال العلامة ومن هذا المنطلق نتعرف على سيميائية الصورة من خلال المضمون الذي نراه بصريًا ويساعدنا على فهم الدلالة الموجودة فيه. والصورة كمادة حقيقية تختزن في داخلها المحسوسات الواقعية والخيالية، المدرك وغير المدرك منها، قد تشكلت من خبرات الإنسان على مر العصور في صيغ ثابتة ومتحولة وفي تشكيلات تلقائية وقصديه تؤثر في الأفكار وتعطي للثقافات سماتها وتمدها بطاقتها الكامنة

الكلمات المفتاحية: الصورة؛ سيميائية؛ التخيل؛ البعد المعرفي؛ الرمز؛ الإشارة.

abstract

The picture is superior to all communication tools as it is the most effective at all and remains effective no matter how time and place change, the meaning can only be identified through the mark. In this sense, we recognize the semiotics that surpassed the picture on all the communication tools as they are the most effective at all and remain effective. Whatever the change of time and place, it is possible to identify the meaning only through the sign and from this point we recognize the semiotics The image through the content we see visually and helps us to understand the significance in it. And the image as a real material stores within it realistic and imaginary senses, aware and not aware of, has been formed from the experiences of human to Human beings throughout the ages in fixed and mutable formulas and in automatic and fossil formations that influence ideas and give cultures their attributes and their latent cards

keys words: Image; Semantic; Imagination; Cognitive Dimension; Symbol; Reference

مقدمة:

تمثل الصورة تمثيل للواقع المرئي ذهنيًا أو بصريًا، أو إدراك مباشر للعالم الخارجي الموضوعي تجسيدا وحسا ورؤية ويتسم هذا التمثيل - من جهة - بالتكثيف والاختزال والاختصار والتصغير والتخيل والتحويل. ويتميز - من جهة أخرى - بالتضخيم والتهويل والتكبير والمبالغة. ومن ثم، تكون علاقة الصورة بالواقع التمثيلي علاقة محاكاة مباشرة، أو علاقة انعكاس جدي، أو علاقة تماثل، أو علاقة مفارقة صارخة، كما تحتل أهمية في المجال السيميائي خاصة في المجال التعليمي لأنها مصدر المعرفة ويتبين ذلك خلال المساحة التي تحتلها في الكتاب والمواضيع المختلفة التي تساعد الطفل على النمو العقلي و المعرفي لديه، فلم تعد مجرد صورة باهتة الغرض منها التزيين فقط بل أصبحت

جزءاً مهماً في الكتاب المدرسي ولها أهداف و أغراض إنسانية، وثقافية، وتربوية، و تعليمية. فهي تشكل فكرية ثقافية تلامس الواقع التربوي الاجتماعي والإنساني في تقنيات جعلت من المجتمع الإنساني مجتمعاً أكثر تقارباً رغم اختلاف قضاياها وتناقض أهدافه ورغم هذا التقارب الزمني والمكاني إلا أن ثقافة الصورة قد تخطت الاختلافات اللغوية وحواجز الجغرافيا ووثقت أحداث التاريخ عبرت عن قدرات الإنسان وجبروته وآماله وتطلعاته. لقد استطاع الإنسان من خلال التقنيات المعاصرة أن يجعل من الصورة الفنية وسيلة تثقيف وتعليم وإعلام وتسويق وأداة مخاطبة. ورغم اتساع ادوار الصورة وأثرها إلا أن تلك الأدوار مازالت مادة خصبة للبحث والتحليل والاكتشاف بمنظور لا نهائي كمدرك بصري يستثير المدرك الداخلي المفسر لوجودها (الصورة) لتخرج قيم تراكمية تشكل وعي الإنسان أفراداً وجماعات وتؤثر في قراراتهم.⁽¹⁾ الصورة لمسة جمالية في حقل من الرموز و الإشارات، تتأثر لتكوين نوع من السردا لبصري لفكرة مقتطعة، ومشهد مختار يحمل رسالة لمتلق نشط واع في العديد من المجالات العلمية، والمعرفية، والثقافية، فهي " عنصر فاعل مرتبطة بالإدراك والوعي و الخيال، والفهم ⁽²⁾ وهي أيسر السبل إلى المعرفة ⁽³⁾، الصورة أداة تعبيرية اعتمدها الإنسان لتجسيد المعاني والأفكار، والأحاسيس، ولقد ارتبطت وظيفتها سواء كانت اخبارية، رمزية، أو ترفيهية بكل أشكال الاتصال والتواصل. والصورة هي واقع متحقق في حياتنا، ويسهل تعريفها بالإشارة إلى تحليلاتها المختلفة، وهذا الاختلاف والتنوع هو سمة من سمات الصورة رغم وحدة كينونتها كنوع في محدد. فالصورة بشكل عام هي بنية بصرية دالة وتشكيل تنوع في داخله الأساليب والعلاقات والأمكنة والأزمنة فهي بنية حية تزخر بتشكيل ملتحم التحاماً عضوياً بمادتها ووظيفتها المؤثرة الفاعلة ⁽⁴⁾.

فالصورة خطاب متعدد المعاني، يرافق النص من أجل توضيح المعنى المراد تبليغه وذلك يعني إبعاد كل المعاني المحتملة التي من شأنها إحداث لبس لدى المتلقي في فهم مقصدية الصورة ومعناها ⁽⁵⁾. (38) إن التعايش بين الصورة واللغة قديم وضارب بجذوره في عمق التاريخ، فمنذ ظهور الكتابة والكتاب وقع تلازم بين الصورة والنص، وقد تعززت وتقوت هذه العلاقة بتطور أشكال التواصل الجماهيري بحيث أصبح من النادر مصادفة صورة ثابتة أو متحركة غير مصحوبة بالتعليق اللغوي سواء أكان مكتوباً أم شفهيًا ⁽⁶⁾.

يرى سعيد بنكر في كتابه (السيمياءات، مفاهيمها وتطبيقاتها)، أن الوجود الرمزي المطلق للسان، يقابله الوجود المحسوس للظاهرة البصرية.. فنحن نبصر لأن هنا أشياء يمكن إبصارها.. ومن هنا طرحت قضية سيميائية للتفكير والمناقشة، وهي: كيف يمكن تحديد طبيعة الصورة؟ هل هناك طريقة خاصة للوصول إلى هذه الطبيعة؟.. ⁽⁷⁾ الصورة واللغة طريقتان للتعبير مكملتين بنفس الوظيفة الاعلامية. وفي هذا الصدد يؤكد " بارت " أن كل نظام العلامات أو الدلالات الاتصالية امتزجت مع اللغة المكتوبة، وأنه من الصعب أن نجد صوراً بدون تعبير لغوي سواء أكان مكتوباً أو شفهيًا، كما أن التعايش بين الصورة واللغة قديم وضارب بجذوره في عمق التاريخ، فمنذ ظهور الكتابة وقع تلازم بين الصورة والنص، بحيث أصبح من النادر مصادفة صورة ثابتة أو متحركة غير مصحوبة بالتعليق اللفظي. ما تعجز الكلمات عن إيصال المضمون إلى القارئ عندما تفتقد لوجود صورة ⁽⁸⁾.

كما بذل جيبسون (Gibson, J.J) جهداً متميزاً لاستبدال فكرة المجال البصري (Visual Field) التي تقوم على إسقاط صورة المجال كصورة على الشبكية كمثير حسي بفكرة المنظومة البصرية (Optical Array) التي تقوم على التنبيه للشواهد وفقاً للمعلومات التي يجري البحث عنها وكذلك الخبرة السابقة والتعلم). وأكد جيبسون على أهمية عملية التقاط المعلومات في الإدراك البصري، فالصور والرسوم في رأيه هي وسائل للتخاطب وتخزين المعلومات وتراكم المعرفة ونقلها إلى الأجيال الآتية.

وقدم ألان بايفيو (Paivio, A)، تحت تأثير نتائج دراسات علم النفس الفيزيولوجي وخصوصاً دراسات روجر سبيري وزملائه في مجال وظائف نصفي المخ الأيسر والأيمن، نظرية الترميز الثنائي (Dual coding) للمعلومات مشيراً إلى المعلومات التي يجري تمثيلها في الذاكرة من خلال نسقين أو نظامين منفصلين لكنهما مترابطان تماماً، هما: نظام التفكير بالصور العقلية ويتعلق بالموضوعات والوقائع العيانية (المحسوسة) المكانية أو المتصورة، ونظام لفظي يتعلق بالتعامل مع الوحدات والبنى اللغوية المجردة، وعندما يزداد تمثل المعلومة المدخلة إلى الذاكرة لهذين النظامين يزداد وجودها داخل العقل بطريقة مناسبة.⁽⁹⁾

فقد أثبتت الدراسات التربوية أن مصاحبة الوسيلة المصورة لنص مكتوب تلعب دوراً أساسياً في فهم واستيعاب محتوى هذا النص، وتكفي صورة واحدة أحياناً لتعبير عن فكرة قد لا يكفي مقال طويل للتعبير عنها، وإذا كانت بجانب نص ما فإنها تشكل دعماً حسيّاً للكلمة المجردة ما يساعد على عملية الإدراك عند القارئ وربط المعلومة بالواقع. وتكتسب الوسيلة المصورة أهمية خاصة في العملية التعليمية/التعليمية إذ يعد البصر من أهم مداخل المعرفة عند الإنسان، ويذهب البعض إلى اعتبار هذه الوسيلة مساوية للنص من حيث الأهمية، إن لم تكن متفوقة عليه أحياناً.

فالصورة تحيل التلميذ إلى عالمه الذي يحبه ويعيش فيه من خلال صور الأب والأم والإخوة والجد والطبيعة والحيوانات وغيرها من الموجودات التي يتعامل معها، ويعي مرجعيتها الفكرية فيحولها إلى منظومة لغوية نصحتها له ونقومها بواسطة الصحة والخطأ، وبذلك تتحقق فاعلية الصورة في كتاب التلميذ لتكون جزءاً محورياً لاكتسابه المهارة اللغوية، وهذه التقنيات والمكتسبات كلها تعين المتعلم على اكتساب المهارة اللغوية، من خلال تنميتها وتصحيح مسارها، ومن ثم التمكن من التلفظ بكلمات صحيحة وتكوين جمل، والقدرة على ترديد عبارات بشكل صحيح على جميع المستويات : ، الصرف، التركيب، الصوت وغيرها.

ولعل تظن مؤلفي الكتاب التعليمية إلى قيمة الصورة جعلهم يوظفون التعابير التي تدفع التلميذ إلى استثمارها في النشاطات التعليمية، ويوجهون المعلم إلى حسن استثمارها والاستعانة بها في تقديم دروسه حتى يتم التواصل بينه وبين المتعلم، وحتى يحقق درسه الأهداف المرجوة وهي إكسابه المهارة اللغوية بالدرجة الأولى وبشكل عام، كمحصل نهائي لمختلف النشاطات التعليمية، ومن هذا التوظيف ما نجده في الوحدة الأولى العائلة التي تشتمل على أربعة دروس، تتضمن نشاطات متعددة منها القراءة الكتابة التعبير، النحو، المحفوظات، الرسم والتلوين⁽¹⁰⁾.

تعدّ الصورة مستندا ذا قيمة تعبيرية مهمة، و بالتالي فإنّ وظيفتها الدلالية لا تقل أهمية عن أي نص آخر. نشير إلى وجود مستويات ثلاث لقراءة الصورة تبدأ بمستوى العدّ Enumeration الذي يرى فيه الشخص الصورة فيعد محتوياتها، ثم مستوى الوصف Description وفيه يصف الشخص عناصر الصورة مبيّناً ملامح أجزائها وصفاتها، وتنتهي بالتفسير Interpretation الذي قد يصل إليه بعض الأطفال قبل دخول المدرسة، وفيه يقوم الفرد بإيجاد علاقة بين عناصر الصورة فيربطها معاً في مفهوم ما.

الأبعاد المعرفية للصورة البصرية لدى الطفل

تعمل الصورة على تنمية إدراك الطفل فهي أهم مبدأ في العملية التربوية التعليمية، ذلك لأن الطفل يمر بمرحلة التكوين في عدة مجالات منها: المجال الحسي والعقلي والمعرفي والاجتماعي والتواصل واللغوي، فهذه المجالات تحتاج للنمو بشكل يومي وسلس وتتطلب وسائل تعليمية نستطيع من خلالها تعميم المعرفة والعلوم على جميع ما يقع عليه بصر الطفل، وبذلك نجلب انتباهه لتلقي العلم، ولا يمكن إيصال المعرفة للطفل دون استعمال الصورة، فهي بمثابة المثير الأكثر قدرة على تنشئة الطفل وتنمية إدراكه، ففي عملية التعلم بالصورة يبدأ الطفل بالانتباه وينتهي بالانتباه، أيضاً، وعن طريق الصورة أو بواسطتها يتلقى الطفل المثيرات العقلية والحسية ويضعها في دائرة اهتمامه، ولا تتم عملية إدراك الصورة بمعزل عن لغة الحوار. فالصورة تمثل اللغة التعبيرية، وهي أهم لغة يفهمها الطفل، كونها تقوم مقام الكلام والتحدث، فلو أراد المدرس أو كاتب قصص الأطفال أن يحكي للأطفال عن شكل هندسي دون رسمه، فإنه يحتاج لوقت طويل ليفهم التلاميذ ماذا يعني بالدائرة، فالكلمة لا تثير خيال الطفل ولا تنمي لديه معرفة الأسماء والأشكال، ولكن الصورة توضح المعنى في ذهنه وترسخه.

إنّ لغة الصورة هي لغة مرئية لا تحتاج إلى أي وسيط توضيحي، ونستطيع القول: إن الصورة هي ربط للكلمة المراد إدراكها، كون أن الكلمات المكتوبة عبارة عن صور مرسومة، فلا توجد لفظة نتحدث عنها أو نتعلمها أو نكتبها دون وجود الخلفية أو الظل لهذه الكلمة والمتمثلة في الصورة، ومن ثم فإن عملية القراءة لدى الطفل تنطلق أو تبدأ بقراءة الصورة، وهي التي من خلالها يتعرف الإنسان على شكله ومحيطه، كما قال أرسطو، كما أن حضارة الإنسان الحالي هي حضارة الصورة كما أشار إلى ذلك الفيلسوف والمفكر "رولان بارت"

فالوصول بالطفل إلى مستوى إدراك الصورة واستيعاب خصائصها المعرفية لا يتأتى إلا بوجود شرطين أساسيين هما: الأسرة والمعلم؛ فكلاهما يجب أن يجب للطفل القراءة الفنية للصور، ويدفعه إلى الاستمتاع بالنظر إليها، مما يجعله يكتسب ملكة الذوق والتفكير، فالصورة تنشئ لديه نشاطاً وفاعلية، وهذا ما يؤكد عالم التربية "جبروم بروفر" حين قال: "إن الناس يتذكرون فقط مما يسمعون فقط مما يقرؤونه، في حين يصل ما يتذكرونه من بين ما يرونه أو يقومون به" وهو يقصد أن تذكر الأشياء بشكل كبير يتم عن طريق الرؤية، ومن هنا يكمن الدور الكبير الذي يتحمله المدرس، لأنه مسؤول مسؤولية كاملة عن تشكيل هذا المجتمع الصغير وتنشئته على ثقافة أصيلة من القيم والأعراف التي يتميز بها المجتمع، فالطفل في حالة تلقي كل ما يصل إليه من معلومات ومعارف، ويفعل ذلك بسعادة كبيرة لأنه في حالة اكتشاف وبحث عن عالمه وأشياءه التي تبعث فيه الأمل والفرح، وبحث عن إجابات عن

مسائل هي بالنسبة إليه غامضة يريد معرفة حقيقتها، فهو لا يدرك من الحياة سوى ما يشغل ذهنه الصغير ويلفت انتباهه في كل لحظة، ويشير لديه الاستمتاع بمباحج الحياة.

الصورة أداة تربوية ثقافية، من الصعب على أي منظومة تربوية ألا توظفها في مضامينها ومحتوياتها، ومناهجها التعليمية، بل هي أداة خصبة لتحقيق العديد من المهارات والكفايات التعليمية المنتظر تحقيقها لدى المتعلم في أفق الحياة التي يحياها⁽¹¹⁾ فهي تستخدم لتنظيم المعلومات، حيث وجد أن الذين استخدموا الصور بمصاحبة نصوص أصبحوا أفضل في تذكر التفاصيل اللفظية، كما أنها منحتهم أداة الانفعالات عبرت تأملهم للغة الجسد و إيماءاته، كما وردت في الصورة المصاحبة للنص، وتقدم المعرفة بطرق ثلاث هي:

1/. التمثيلية

2/. التصوي: ويراد بها المشاهدة والمماثلة، وبهذا يأخذ المنحى السيميائي الذي، يعد الصورة علامة تقوم على المحاكاة و التماثل ذات أبعاد تواصلية⁽¹²⁾

3/ الترميز: تعرف الصورة بأنها أشكال تقريبية مبسطة ذات بعدين طولي وعرضي، تبعد عن التفاصيل غير الضرورية تعبر عن الأفكار والمفاهيم، والعلاقات البصرية، مما يسهم في زيادة فاعلية عمليتي التعليم والتعلم، واستخدامها في المنهج المعلن والضمني داخل قاعة الصف⁽¹²⁾ أوهي: رؤية فنية بسيطة مركزة، تعين المتعلم على إدراك دلالات تعكسها الألوان والخطوط والأشكال؛ لتعبر عن المضمون، والقيم والاتجاهات المستهدفة في المحتوى اللفظي، وتوظف في مواقف تعليم اللغة الثانية عبر التفاعل الصفي و الحوار المنصب على المعنى.

إن التلميذ الذي يتحسس الصورة المصاحبة مع الأثر الصوتي الشارح لماهيتها والمترجم لحديثاتها، والمجسم لهيئتها التشكيلية، له أثر على ذاكرته أقوى من المادة المكتوبة وحدها⁽¹³⁾، فإن الإحساس في المنظور الترابطي هو المعرفة الأولى، فإن الصورة تظل المعرفة الثانية بوصفها استرجاعا للإحساس، فالصورة الموجودة لدى عن قسيمي هي نتاج إحساسي بشكل القسم وألوانه، والإحساس باللون هو ترابط أحاسيس أخرى، فالصورة تدفع المتعلم إلى إشراك جميع الحواس (الحس المشترك) في الدراسة والاستيعاب، وتشحذ ذهنه نحو التفكير والتأويل والتحليل، وهذا ما يجعله استقبالا قادرا على تدقيق الملاحظة، واتباع المنهجية العلمية في التعلم، والحكم، والتقييم، والتقويم في الوصول إلى حل المشكلات بمختلف أنواعها. وتساعد في تنويع أساليب التعلم مواجهة للفروق الفردية بين المتعلمين، لأن لكل متعلم ذكاء خاص، يختلف عن باقي ذكاءات زملائه، وبهذا التنوع في الأساليب يمكننا أن نشبع رغبات الجميع ونحقق الأهداف التربوية، إذ لا تقتصر فعالية الصورة على إيصال المعلومة أو إكساب المعارف والكفايات، بل تبرز أهميتها أكثر في تفعيلها لآليات الاشتغال الذهني. فهناك إمكانيات عديدة أمام الصورة لتسهيل التعلم في إطار البيداغوجيا النشيطة، وتحديدًا بيداغوجيا حل المشكلات. وهنا تبرز أهمية الفيلم التربوي الوثائقي، بوصفه حاملاً لمشروع أو لقصد ديداكتيكي. ومعلوم أنّ الفيلم التربوي يشكل إلى جانب الأفلام الوثائقية الأخرى، العلمية والإشهارية والتاريخية إلخ.. مجال "الهامش" الذي يوجد في الطرف المقابل للفيلم الروائي (الخيالي)⁽¹⁴⁾ لذلك، فإنّ منتوجه يكون تعليميًا

(ديداكتيكياً) في المقام الأول، كما أنّ وظيفة الصورة في إطاره، تتمثل في الإعلام والتعليم informer et instruire.

خاتمة:

للصورة دور عظيم في التعليم بصفة عامة، وإكسابه التلميذ كثيراً من المعارف التي من الممكن أن تعجز الكلمة وحدها عن إيصالها إليه بتلك الدقة والمحسوسية التي تقدمها له الصورة التعليمية، فهي تعدّ الصورة أحد لغات البشرية فو تستحق التأمل والبحث بوصفها حقلاً جديداً من حقول المعرفة العابرة للتخصصات كما تعدّ صناعة تتحكم في قطاع واسع من مجالات العلم والمعرفة وتحمل في طياتها دلالات ومعان ورموز يضفي عليها قيمة تجعلها أداة اتصال فاعلة في التحويلات الثقافية محققة بذلك دوراً اتصالياً وإقناعياً وحضارياً وجمالياً، فقد أضحت وسيلة تأثير في العملية التواصلية بما تقدمه من دور فعال في العملية التربوية لما تتوفر عليه من خصائص

الهوامش والاحالات

- (1) الزيات، فتحي. 1995 الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات. ط1، سلسلة علم النفس المعرفي، كلية التربية جامعة المنصورة، ص6.
- (2) أبو بكر العزاوي الخطاب و الحجاج، الرباط: مؤسسه الرحاب الحديثة، 2010، ص 101
- (3) محمد جمال الفار، المعجم الاعلامي، 2009، ص 2011.
- (4) G.Graugnard et J. Hugo. L' audio-visuel pour tous, Lyon, Chronique Sociale, 1983, p 9.
- (5) ساعد ساعد وعبيدة صبطي، الصورة الصحفية دراسة سيميولوجية، القاهرة: المكتب الجامعي الحديث، 2011 م، ص83.
- (6) المصدر نفسه، ص 39
- (7) سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، سلسلة شرفات 11، منشورات الزمن، الرباط، 7333، ص 2
- (8) إبراهيم محمد سليمان: مدخل إلى مفهوم سيميائية الصورة، المجلة الجامعية، قسم الاعلام، كلية الآداب، جامعة الزاوية ع 72، مج 76، ابريل، 2014 م، ص15
- (9) عبد الحميد، شاكر، عصر الصورة، سلسلة عالم المعرفة، عدد311، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2005، صص147-150
- (10) عبد الكريم الإبراهيمي، المرجع في تعليم اللغة العربية، ط1، دار الهلال للنشر والتوزيع، 1989- الرياض، السعودية، ص56
- (11) الحبيب الناصري (0222 (الصورة و دورها في منظومة القيم، وهي متاحة في الإنترنت، بتاريخ 2012/02/15 www. Drob.com
- (12) آل منصور، سيميوتيفيا الصورة، سلطة الصورة ام صورة السلطة، مخبر تعليم اللغة الربية وآدابها، الطتباب الرابع، بسكرة www.aladab.com
- (12) اسماعيل صالح الفراء،
- (13) علي القاسمي وآخرون، التقنيات التربوية في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ايسيسكو -. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1991

ص187

(14) Geneviève Jarquinot, Image et pédagogie, Paris, PUF, 1977, p. 32